إدريس علي.. وقراءة في روايته المدهشة التي نالت جائزة جامعة أركنساس عن نسختها المترجمة إلى اللغة الإنجليزية

رماة الحُدُق .. «دنقلا».. رواية صادمة تتعرض لمجتمع النوبة وتطرق المنطقة المتشابكة.. منطقة الانتماء

حملات وتجريدات عسكرية كثيرة وجهت إلى «النوبة» لإخضاعها وتأديبها ومنها حملات الملوك «تحتمس الثالث» و«حور محب» و«رمسيس الثاني» في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان صالحهم عبد الله بن أبي السرح على هدنة يعطون بموجبها الرقيق إلى المسلمين مقابل الطعام

قدم لنا الكاتب قراءة لما تعرض له أهل تلك المنطقة من ظلم وتهميش دفع البعض إلى المطالبة بإعلان «دولة النوبة»

بقلم : محمد جراح
كاتب روائي وإعلامي مصري
Garrah1959@gmail.com

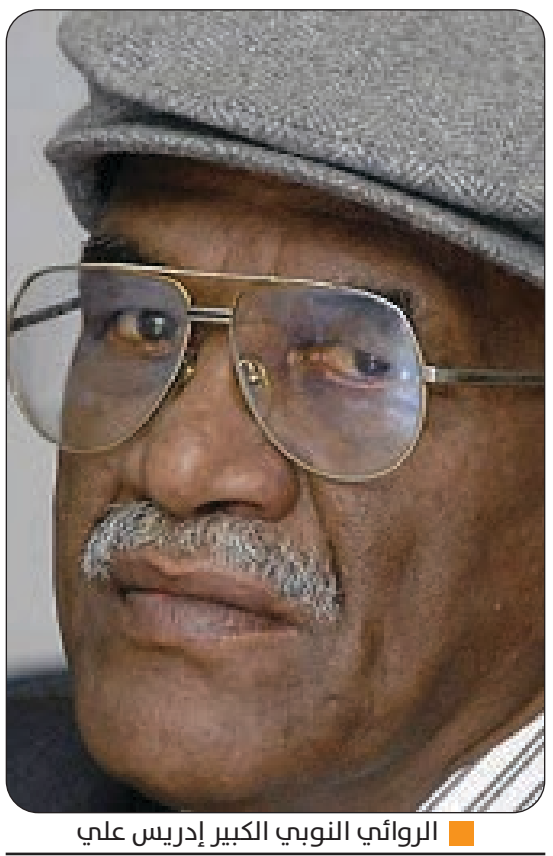
الروائي النوبي الكبير إدريس علي

الأديب والناقد والإعلامي محمد جراح آل جراح

كثيرة هي الأعمال الأدبية التي تناولت شأن منطقة النوبة المصرية منذ كانت وحتى أصبحت. فالقارئ للتاريخ المصري القديم سيعرف أن «النوبة» كانت في أغلب الأوقات من مناطق الإزعاج للمملكة المصرية القديمة، فلا تكاد تخلو سيرة ملك من الملوك القدامى من ذكر اسم «النوبة»، والحملات والتجريدات العسكرية التي كانت توجه إليها لإخضاعها وتأديبها، ومن بين أشهر هؤلاء الملوك، وعلى سبيل المثال، كل من الملوك «تحتمس الثالث» و«حور محب» و«رمسيس الثاني» وغيرهم.

وقد تدل مثل تلك الروايات المتواترة وما ذكرته كتابات المصريين القدماء سواء على الجدران؛ أو في لفائف البردي على ما كان للنوبة من شأن وحساب حفظ لها خصوصية ميزتها عن سائر الأقاليم ومناطق النفوذ المصرية القديمة. وقد استمرت تلك الخصوصية على مدار قرون كثيرة لتتجلى فيما بعد في معاركهم وتصديهم لجيش المسلمين بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر، إذ تروي كتب التاريخ أن أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، رضي الله عنه، وجّه «عُقبة بن نافع الفهري» على رأس جيش إلى منطقة النوبة لفتحها، لكن ذلك الجيش ارتد على أعقابه على الرغم من قوته، ولم يتمكن من إحراز نصر، أو عقد هدنة، أو حتى الاتفاق على صلح؛ لأنه تفاجأ بأناس مهرة في الرمي بالنبال، وكانت أهدافهم لا تصيب إلا الأعين؛ ومن أجل ذلك سماهم العرب بـ «رماة الحُدق».

وقد استمر وضع النوبة على ما هو عليه حتى خلافة أمير المؤمنين «عثمان بن عفان»، وفي عهده صالحهم والي مصر «عبد الله بن أبي السرح» على هدنة يعطون بموجبها الرقيق إلى المسلمين في مقابل الطعام. ويذكر المقريزي أن «عبد الرحمن العمري» عندما انتصر على النوبيين في الموضع الذي يعرف بـ «شنقير» والواقع بين موقعي «بربر» و«أبي أحمد» كثر السبي عند أصحابه، حتى أن أحدهم كان يحلق رأسه فيعطي المزين رأساً من الرقيق مقابلاً للحلاقة!

****

تبدأ رواية «دنقلا» للكاتب الكبير الراحل إدريس علي، بمجموعة من الإشارات التاريخية التي ربما أراد المؤلف من خلالها أن يؤصل لجانب من تاريخ «النوبة» الذي يؤكد عراقتها، وقوتها، ونقاء معدن أهلها، وهي إشارات تحمل الكثير من الدلالات الجلية فيما يختص بعراقة المكان وأهله. وقد سعى الكاتب من خلال متن الرواية أن يقدم لنا قراءة لطبيعة أهل تلك المنطقة، وما تعرضوا له من ظلم وتهميش دفع البعض لما شعروا بالظلم إلى حد المطالبة بالانسلاخ عن الدولة المركزية وإعلان دولة النوبة (1) التي كانت فيما مضى مملكة مسيحية خالصة حتى دخل أهلها جميعاً في الإسلام، واستطاع بعض ملوكها فيما مضى أن يصلوا إلى عرش مصر، وحملوا صفات وأسماء كل من اعتلى عرش مصر وحمل لقب «فرعون».

يهدي المؤلف الرواية إلى صديقه عاشق النوبة «صلاح سليم» وبعدها يتوجه بالتهنئة إلى أهل الشمال (2) فخاطبهم بالأصدقاء والأحباب وهو يخبرهم أن هذه هي كل أوراقه ومن أجل ذلك فهو يترجاهم ألا يمزقوها، ولا يسكتوا صوته إذا ما قام من بينهم يرجوهم فلا يرجمونه، لأنه عاش بينهم، وأكل معهم، وعشق حضارتهم، لكنه يعود فيستدرك قائلا: إنما أنقل لكم وبصدق جارح بعض أوجاعي وأوجاع قومي.

وتتبدى هنا المفارقة فالكاتب وإن شعر بالظلم وإن فكر في الاستقلال إلا أنه يعود إلى طبيعته المتسامحة، تلك الطبيعة التي يتسم بها أهل النوبة جميعاً وهي النقاء والصفاء وتوخي العدل والسعي نحو تحقيقه!

النوبة بلاد الذهب

أطلق المصريون القدماء على ذلك الإقليم أو تلك المنطقة اسم «نوب»، ونوب تعني الذهب، وفي ذلك إشارة إلى غناء تلك المنطقة بذلك المعدن النفيس منذ القدم، وهو ما تدل عليه وثائق الحاضر إذ إن معظم مناجم الذهب المصري تقع بالجنوب، ولعل في جبل «السكري» الذي اكتشف حديثاً ما يدلل على ذلك الأمر.

وقد تحدثت الرواية عن المجتمع النوبي البسيط والمسالم في معظم الوقت، وكل أحداث الرواية تدور في تلك الفترة العصيبة التي وجد فيها «النوبيون» صديقهم النهر، كما لو كان قد تآمر عليهم، فصار يتعالى بمائه على دورهم ومزارعهم منذ تم تشييد خزان مدينة «أسوان» وتوالت بعد ذلك التعليات عليه، فالتهم الماء المخزّن خلف السد دورهم ومزارعهم، حتى شيد «السد العالي» في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، فزاد الأمر صعوبة، وبلغ النهر أوج استعلائه، فوجد النوبيون أنفسهم مشردين .

تشير الرواية إلى شخصية «دهب جزولي» الذي كان ملازماً في الجيش المصري، فحارب واستشهد في سيناء فابتلعته رمالها، وشقيقه «بحر جزولي» طالب الحقوق الذي آمن بالاشتراكية والعدل، فامتلأ البيت برموز الاشتراكية مثل «مكسيم جوركي» و«دوستويفسكي» و«لينين» حتى اعتقل ولم يعد، لما سرب مقالا هاجم فيه تهجير أهل النوبة إلى جبل «السلسلة» بأسوان، فانفجر مخ أمهما حزناً عليهما معاً!

قرر الخال العودة من القاهرة إلى الجنوب مصطحباً معه ابن أخته، وهو الراوي الرئيس في الرواية، وقبل أن يستقلا القطار طاف الراوي «عوض شلالي» بالقاهرة فرأى وجوه الناس حزينة من تأثير حرب اليمن عليهم، ومن الغلاء الذي ينهشهم، ونراه في دهشته وحيرته يرى أسود كوبري قصر النيل ليسوا أكثر من إناث رغم هالة الشعر التي تكسو وجوهها، فقد نسي من نحتها أن يضع لها شواربها فبدت مغايرة للذكور من أسود الطبيعة!، كما نراه مهووساً طوال الوقت بمن يراهم يلاحقونه من المخبرين وكتبة التقارير الأمنية، أولئك النفر الذين استطاع أن يراهم بوضوح ويقين في ماسح الأحذية، ونادل الكازينو، ومصور الفوتوغرافيا.

وقد ظل الراوي «عوض شلالي» ناقما على الشمال الذي رآه متجسداً في «روحية» زوجة أبيه، فرآها مجرد امرأة بضة بيضاء طرية، وقع الأب فريسة لها بلسانها الحلو وملابسها التي حاكتها من أقمشة «الستان» ناعمة الملمس، و«الدانتيل» المخرَّم، ولم يكن لها من هدف سوى «شلالي» الكسِّيب جرسون فندق «شيبرد»، ولكنها مع كل فسقها، لم تهبه نفسها إلا عند المأذون، فنسي بهيامه بها وبعريها الفج زوجته وموطنه حتى قامت بتسميمه، فمات مغدوراً بعد أن ردها من طلاق لما ضبطها في السينما مع آخر.

كان «شلالي» مزارعاً قبل أن يقصد الشمال ليعمل بواباً على إحدى البنايات حتى عرف فندق «شيبرد» وعمل به؛ وكثر المال في يديه، وقد اختار كل منهما الأب والابن طريقاً مختلفاً للتعامل مع «حضارة» الشمال، وكلا الطريقين يؤدي إلى الموت سواء أكان ذلك الموت فكراً كحالة الابن «عوض»، أو عشقاً كحالة الوالد «شلالي»، بينما ظلت «حوشية النور» أمه التي لم تهنأ من زواجها إلا بشهرين فقط على حالها تعاني الجفاء، وافتقاد العدل، ومتألمة من الحية الشمالية التي تزوجها زوجها عليها، حتى انتهت حياتها خنقاً بيد زوجة ابنها الخائنة في لحظة طيش فارقة.

وكثيرة هي الأوجاع، فلا تخلو الرواية من الإشارات والرسائل الدالة على ذلك، فهي تشير إلى تعالي أهل الشمال وأصحاب السلطة والمراكز في التعامل مع أهل «النوبة»، فالضابط يصفه بابن الجارية، ويتلو على مسامعه بعضاً من ذلك المن بلسانه المتعجرف لما يُعيِّره بكلمات وجمل مهينة مثل "نحن الذين علمناكم، ولو كنا قد تركناكم لبقيتم مجرد سفرجية وبوابين لنا"، بينما هو لا يمل من الإشارة إلى الظلم الواقع عليهم منذ عصر الملك «سنفرو» رأس ملوك الأسرة الرابعة الحاكمة في مصر زمن الفراعنة، ووالد الملك الشهير «خوفو» صاحب هرم الجيزة الأكبر، فالكل تآمر عليهم منذ ذلك العصر البعيد؛ وتعاقب من بعده السفاحون كما يسميهم الراوي، وكان أبشعهم «شمس الدولة توران شاه»، وكان أسفحهم هو «الظاهر بيبرس» ذلك المملوك الذي حكم مصر ويتغنى ببطولاته أهل الشمال على الدوام.

في الليلة التي كانت ليلة فرح ومرح بمناسبة عودة «عوض» أَبَى المطرب «عبده شندي» إلا أن يختمها بالحنين والحزن لما تذكر النوبة التي كانت، تذكر القرى والبيوت والوطن الذي كان حتى غرق فغنى للوطن حتى أبكى الجميع:

«يا بلدي، يا وطني
يا داري، يا تراب أجدادي
يا نخلاتي، يا نوبة
يا واحد، يا واحد، يا واحد»

****

الثائر يأساً

عوض شلالي هو ذلك الإنسان المهموم بوطنه، والذي شعر أنه ظُلم، وظلم معه أهله الذين ابتلع النهر صراخهم وعويلهم، ولما قام فيهم ينادي بأن يكون لهم شأن لم يجد من أهله من يقف معه؛ بل هب كثير منهم في وجهه يستنكرون عليه ما يقوله، وما يطالب به من أجلهم فهرب إلى السودان لما اعتادت الشرطة بصلف ضابطها مداهمة بيته وإهانة أمه.

وقد رأى عمدة القرية كما رأى غيره أن الدولة قدمت لهم الكثير، فلا يكون المقابل عصيانهم للنظام الذي ساعدهم بينما رآه «عوض» متجبراً وظالما ولا يسعى إلا لمصلحة الشمال، ولا ينظر إليهم إلا بمثل النظرة القديمة بأنهم مجرد عبيد أو زنوج، على الرغم من أن الدولة كما حكى له أكثر من «نفر»(3) أتاحت لهم التعليم وأنشأت المدارس، فتبوأوا من الوظائف ما كان مستعصياً عليهم من قبل، ومنهم عوض نفسه الذي تعلم حتى صار مدرساً، لكنه ربما رأى من زاوية أخرى كثيراً من آيات النفاق التي يقدمها البعض للنظام والتي تتمثل في برقيات التهنئة والتأييد؛ ومن أجل هذا وغيره من تلك الصور المقززة استنكف مثل تلك الأفعال، ورأى من يأتونه لا يستحقوا أن يكونوا أحفاد «رماة الحُدق» على الإطلاق

ولما هرب إلى السودان تحدث هناك عن نوبة واحدة تجمع نوبة مصر مع نوبة السودان، لكنهم في السودان ظنوه مدسوساً عليهم أتى ليمزق وحدتهم، وهو يتحدث عن مملكة كانت فيما مضى تخص النوبيين دون غيرهم، وكانت عاصمتها مدينة «دنقلا»، ولولا أنه سكت لكانوا قد فتكوا به، فرحل بجواز سفر سوداني إلى بلاد الله الواسعة حتى ينتهي به الحال للعمل على سفينة يملكها خواجة ولد وتربى في «الإسكندرية»، وهناك يتعرف على سيدة فرنسية صارت مهووسة به وهي تسعى إلى الطلاق من زوجها، فتقابلا وتنقلا وغاب عن أمه الوحيدة «حوشية النور» التي عاشت الفقد الدائم من زوج تزوج عليها وأهملها حتى مات، وابن لا يقل في جموحه عن أبيه فهو الذي مكث في المعتقل تسع سنوات، وهو الذي يغيب عنها رغم عجزها وحاجتها إلى من يخدمها سنوات وسنوات، وعندما عاد لبعض الوقت، وتكاثر عليه الجميع حتى يتزوج، وليسافر أو يجلس بينهم فهذا لا يهم، ولتكن زوجته إذا ما عاود السفر مثل غيرها ممن ينتظرن أزواجهن الذين تفرقوا إما في الشمال، أو في غيرها من الدول العربية التي تكاثرت فيها فرص العمل فتزوج من «حليمة» قريبة أمه، والتي كانت تخدمها من باب الشفقة عليها لما كانت وحيدة من قبل أن يأتي هو ويعود.

وعلى عكس ما صنعه الطيب صالح في روايته الخالدة «موسم الهجرة إلى الشمال» كان ما صنعه «إدريس علي» في روايته «دنقلا»، فعوض شلالي ما إن نزل وطنه حتى عاد إلى بلاد الشمال تاركاً زوجته مع أمه التي تسلطت عليها بأوامرها وطلباتها الكثيرة، صارت الزوجة تتشوق إلى رسالة تروي ظمأها إلى زوج لم تمهلها الأيام أو لم يمهلها هو حتى تشبع منه، فعاد من حيث أتى وهي بين ناري الشوق إليه، وأوامر أمه العجوز الضريرة حتى استبد بها الشوق ذات ليلة إلى ذلك الصعيدي الذي يحرس مواد البناء، خرجت إليه بملابس كاشفة تحمل إليه بعض أكل لما شدها بغنائه، وعادت به إلى بيتها ليعاشرها حتى شعرت بأنفاسهما العجوز، وما أن صرخت المرأة الضريرة في دياجير ذلك الليل الأسود حتى انطلق الصعيدي هارباً- بينما امتدت يد الزوجة لتخرس ذلك الصوت الذي سيفضحها، ولما استمرت تقاوم أطبقت اليد على رقبتها حتى أسكتتها للأبد، وصرخت لتوقظ أهل القرية ليقبضوا على الصعيدي الذي خنق العجوز كما ادعت.

رواية إدريس على رواية صادمة وإن كانت قد تعرضت لمجتمع النوبة وظروفه، إلا أنها لم تبارح تلك المنطقة المتشابكة، منطقة الانتماء إلى الوطن الصغير النوبة، وإلى الوطن الكبير مصر، فإذا كان عوض وغيره قد ظلموا، وإذا كان أهل النوبة كلهم قد أضيروا، إلا أنهم لم يتمردوا أو يعلنوا العصيان، أو وقفوا مرة في وجه الدولة، وكانت كل ثوراتهم أو احتجاجاتهم مجرد أصوات تنفيساً عن غضب من إهمال وليس أكثر، فلم يفكروا في انفصال عن الوطن الأم على الرغم من تنامي أصوات داخل وخارج المجتمع النوبي تدعو إلى ذلك. وربما أراد الكاتب أن يظل وضع الارتباك على ما هو عليه فلا دعوة «عوض شلالي» لاقت قبولاً سواء في النوبة المصرية أو في النوبة السودانية، ولا عوض نفسه قد عاد لما شدته أوروبا إليها، وإذا كان قد تعذب بالمعتقل ومات غيره في ساحة القتال فذلك لأنهم جزء من نسيج الوطن الكبير الذي تعذب ناسه دون تمييز بين شمال وجنوب.

ثمة معان كثيرة بين سطور الرواية لم يشأ أن ينطق بها الكاتب وإن كانت تتبدى على استحياء، وتطل بين الحين وتابعه لتقول للدولة إن في النوبة أناساً قد ظلموا، وتراثاً قد جرف، وأن الجميع الدولة وغيرها من المنظمات الدولية لم تبذل في سبيل أهل النوبة مثل ما بذلته لإنقاذ الأحجار ومعابد القدماء.

بقي أن نشير إلى أن رواية دنقلا للكاتب الراحل إدريس علي نالت جائزة جامعة أركنساس عن نسختها المترجمة إلى اللغة الإنجليزية عام 1997م.

****

(1) إلى جانب اللغة العربية يتحدث أهل النوبة بلغة خاصة بهم هي اللغة النوبية، وهي لغة مشافهة أي لا تكتب، وقد استخدمتها القوات المسلحة المصرية كلغة شيفرة في حرب أكتوبر عام 1973م

(2) يقصد بأهل الشمال أي شمال مصر على ضفتيه، ولم تستطع المساكن الأسمنتية التي شيدتها لهم الدولة في جبل السلسلة بدلا من مساكنهم وقراهم التي أغرقها السد أن تعيد لهم هدوءهم وسكينتهم ورضائهم وسلامهم النفسي، ولم تستطع كذلك أن تعيدهم إلى مصادقة نهرهم الذي كانوا يتعمَّدون ويغتسلون فيه من وسن الليل مع مشرق كل نهار، ويودعونه أسرارهم مع قدوم المساء وهو ينساب بمائه النمير، وخصبه الوفير في مزارعهم فتهتز وتربو وتجود لهم بخيرها الذي يكفيهم ويزيد.

(3) نفر تعني شخص وهي مفردة مستعملة منذ عصور القدماء وحتى اليوم وجمعها أنفار.

غلاف الرواية

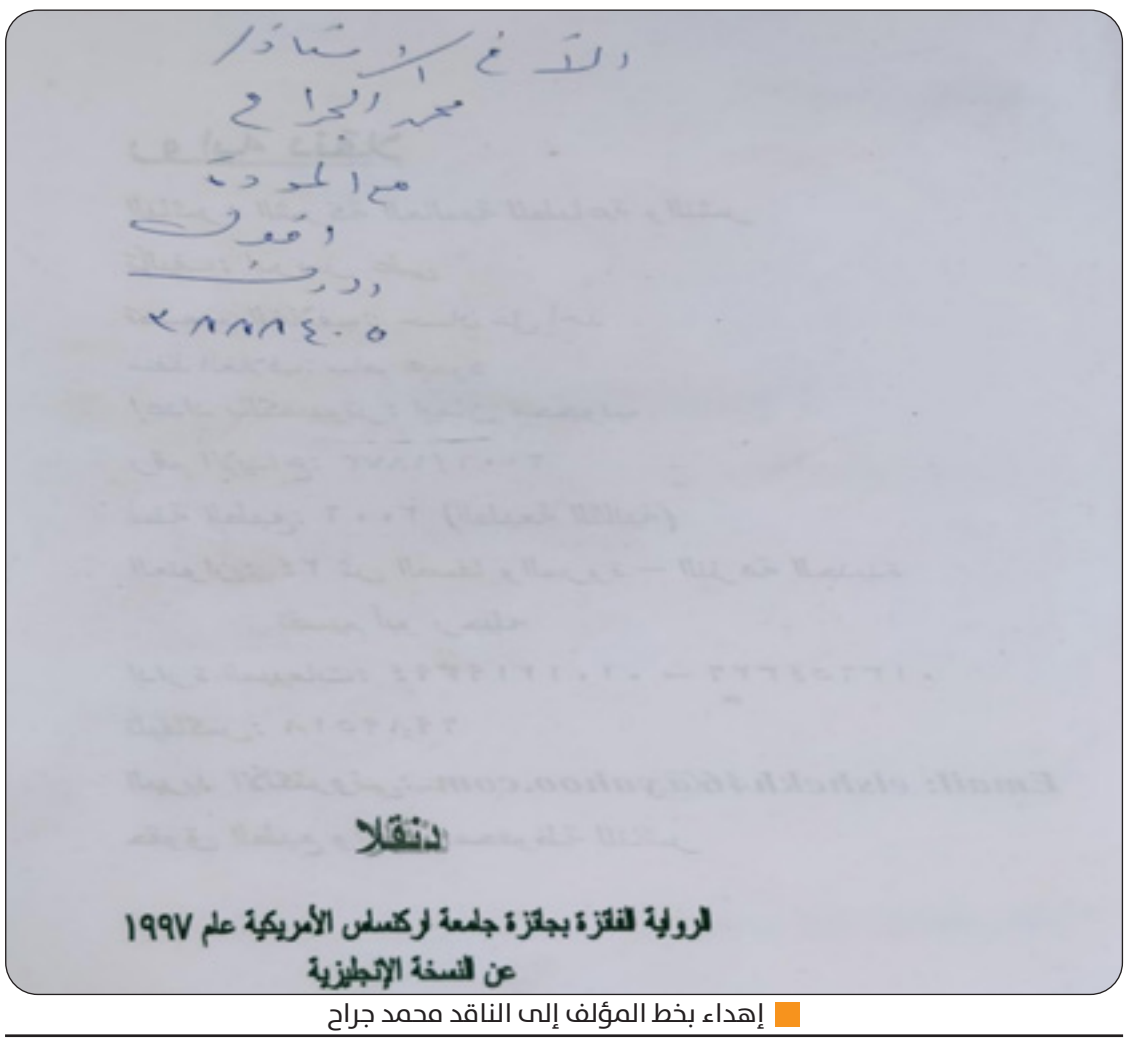
إهداء بخط المؤلف إلى الناقد محمد جراح